الصدق

الصدق

قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] ولقد قلنا: إنه عندما ينادي الحق سبحانه وتعالى عباده المؤمنين إنما يناديهم بحكم إيماني أو يطلب منهم الإيمان، مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ما دام الحق سبحانه وتعالى خاطبهم بأنهم مؤمنون فكيف يطلب أن يؤمنوا؟! نقول: إنه جل جلاله يريد منهم المداومة على الإيمان لأنه من الممكن للإنسان أن يؤمن ثم يرجع عن إيمانه، ولذلك فالإيمان موجود فيهم ولكن الله يطلب استمراره.

الحق سبحانه وتعالى في الآية التي نحن بصددها يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي يا من آمنتم بالله اتقوا الله أي اجعلوا بينكم وبين صفات غضب الله وقاية، ولكن المفروض أن المؤمن يكون في معية الله فكيف يطلب الحق سبحانه وتعالى منا أن نجعل بيننا وبينه وقاية؟ نقول: إن المعنى اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال في الله وقاية.

هنا يأتي من يتساءل.. الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ويقول: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ [آل عمران: ١٣١] فكيف ينسجم المعنى؟ نقول: إن المعنى ينسجم لأن النار جندي من جنود صفات الجلال لله، فكأن الحق تبارك وتعالى يقول: اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال لله وقاية، والنار من جنود صفات الجلال، فاجعلوا بينكم وبين النار وقاية.

وقول الحق جل جلاله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ العلماء قالوا: إن المعنى كونوا من الصادقين نقول: إن هناك فرقاً بين مع الصادقين ومن الصادقين، فمع الصادقين معناها: التحموا بهم فتكونوا في معية الله، فإذا جاء من بعدكم وجدوكم من الصادقين. إذن فمع الصادقين سابقة لمن الصادقين، ولكن من هم الصادقون؟ مادة صاد ودال وقاف أي صدق تدل على أن هناك نسباً يجب أن تتوافق.

ما معنى هذه النسب؟ نقول: إن الإنسان حين يتكلم فإنه قبل أن ينطق بالكلمة تمر على ذهنه ثم ينطقها؛ إذن فالكلمة قبل أن تكون نسبة كلامية تكون

نسبة ذهنية. فإذا أردت أن أقول: محمد زارني قبل أن أسمع لساني ينطق بهذه العبارة مرت على ذهني أولاً، والمستمع لا يدري شيئاً عنها لكن المتكلم يعرف، فإذا قلت كلاماً اعلم أن النسبة الذهنية جاءت إلى عقلك فترجمها لسانك إلى نسبة كلامية، فلما سمعها السامع عرف النسبتين. قد تكون هذه النسبة صحيحة وواقعة مثلما تقول: محمد زارني أمس. ويكون ذلك واقعاً فتكون صادقاً. إذن فالصدق أن تطابق النسبة الكلامية الواقع. فهناك نسبة ذهنية ونسبة كلامية ونسبة واقعية فإذا تطابقت النسبة الكلامية مع الواقع فذلك هو الصدق، وإذا لم تتطابق فذلك هو الكذب. فكل كلام تقوله يحتمل الصدق والكذب. فإن كان واقعاً فهو صدق وإن لم يقع فهو كذب؛ على أن هناك نسبة واقعية تحدث بعد الكلام، كأن تقول لشخص: سأزورك غداً. إن كانت واقعاً سيحدث فهي صدق، وإن كانت مجرد كلام لن يحدث فهي كذب.

والصدق هو الذي يجمع كل خصال الإيمان، فالرجل البدوي الذي ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال له: يا رسول الله، فيّ ثلاث خصال لا أقدر عليها: الأولى هي النساء، والثانية هي الخمر، والثالثة هي الكذب، وقد جئتك يا رسول الله لكي تختار لي خصلة من الخصال الثلاث أتوب عنها. فقال له رسول الله ﷺ: كن صادقاً وما عليك. فلما جاء خصلة شرب الخمر قال: وإن سألني رسول الله ﷺ أشربت الخمر أم لم تشرب ماذا أفعل؟ لا بدّ أن أقول له. فامتنع عنها، وعندما نظر إلى امرأة واشتهاها قال: إن سألني رسول الله ﷺ ماذا فعلت مع النساء، ماذا أقول؟ فامتنع عن النساء. وهكذا منعه الصدق من المعاصي. ولذلك عندما سئل رسول الله ﷺ أيسرق المؤمن؟ قال: نعم. أيزني المؤمن؟ قال: نعم.. أيكذب المؤمن؟ قال: لا[1].

---

(١) أخرج الخرائطي في مساوئ الأخلاق، وابن عساكر في تاريخه عن عبد الله بن جراد أنه سأل النبي ﷺ: هل يزني المؤمن؟ قال: «قد يكون ذلك»، قال: هل يسرق المؤمن؟ قال: «قد يكون ذلك»، قال: هل يكذب المؤمن؟ قال: «لا»، ثم أتبعها نبي الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].
وأخرج الخطيب في تاريخه عن عبد الله بن جراء قال: قال أبو الدرداء: يا رسول الله، هل يكذب المؤمن؟ قال: «لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر من إذا حدث كذب». وروى البخاري [٦٧٧٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن». ومسلم [٥٧/ ١٠٠]، والترمذي [٢٦٢٥]، والنسائي [٤٨٧٠]، وابن ماجه [٣٩٣٦].

وقول الحق: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أي لا بدّ أن يكون كلامكم مطابقاً لواقع فعلكم، إياك أن تقول كلاماً وفعلاً ينفي، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ • كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

وقوله جل جلاله: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ١٧٧] إذن فالمسألة ليست شكلية ولكنها إيمان حقيقي صادق.

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ أليس المعنى مكرراً؟ نقول: لا.. لأن المال على حبه هو الزكاة غير الواجبة، أما الزكاة فهي الواجبة المفروضة. الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أي طلب منهم أن يكونوا صادقين، نقول: لأن من تخلف عن الغزوات بعضهم كذب في العذر، وبعضهم صدق في العذر؛ فقال لهم جميعاً: ادخلوا من باب الصدق.

الصدق المطلق

الخبر في المجال البشري قد يحتمل الصدق أو عكسه، لكن الخبر من الله فهو سبحانه صادق له مطلق الصدق.

والصدق هنا لأن الله هو الذي قال لنا ذلك، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

قد يقول واحد: وهل الصدق فيه تفاضل؟ معنى الصدق هو مطابقة الكلام للواقع فالإنسان حين يتكلم وقبل أن يتكلم هو عاقل؛ فهو يدير المسألة التي يريد الكلام فيها ليعمل العقل فيها، وبعد ذلك ينطق الكلام.

إذن.. ففي الكلام سبق وقلنا نسبة ذهنية وهناك نسبة كلامية، وهناك نسبة واقعية.

فعندما يقول واحد: «زيد مجتهد» فهو قبل أن يقول ذلك جاء في ذهنه أن هناك واحداً يسمى زيد ومجتهد، وهذه النسبة الذهنية وعندما ينطقها صاحبها تكون «نسبة كلامية»، ولكن هل صحيح أن هناك واحداً اسمه زيد وأنه مجتهد؟ إن طابقت النسبة الواقعية كلا من النسبة الذهنية والنسبة الكلامية يكون الكلام صدقاً، وإذا لم يكن هناك أحد اسمه زيد ولا هو مجتهد تكون النسبة الخارجية لم تتطابق مع النسبتين «الذهنية والكلامية»، وهنا يكون الكلام كذباً.

فالصدق كما قلنا هو تطابق النسبة الكلامية مع الواقع، أي مع النسبة الخارجية الحاصلة فإن تطابقت فذلك هو الصدق، وإن لم تتطابق فذلك هو الكذب. لكن لماذا يكذب الكذاب إذن؟ إنه يكذب ليحقق لنفسه نفعاً بقوة الصدق في نظره، مثال ذلك ما يحدث في حياتنا العادية، يكسر الابن شيئاً في المنزل كمنضدة، فالأب يقول لابنه كسرت هذه المنضدة؟ وينكر الابن قائلاً: لا لم أكسرها. هنا هل يعلم أن الصدق قد يسبب له عقاباً؟

إذن.. لا يحمله على الكذب إلا تفويت مضرة ستصيب الإنسان من الصدق، ولذلك يلجأ الإنسان إلى الكذب، والكذب هو أن يقول الإنسان كلاماً يخالف الواقع، وما دام الإنسان يقول كلاماً يريد أن يحقق لنفسه نفعاً، أو يدفع عن

نفسه ضرراً. والذي ينفع الإنسان لا بدّ أن يكون أقوى منه، وكذلك الذي يضره، فما بالنا في هذا المجال بالنسبة للّه؟

لا يوجد أحد يسبب للّه نفعاً أو ضرراً. إذن فإذا قال اللّه فهو صادق، فأسباب غير الصدق لا توجد عنده، وإذا قال الحق شيئاً فهو يعطينا الكلام الذي يوضح لنا واقع الحياة ويعطينا الكلام الذي يصف لنا الغيب، والغيب لا يدخل في نطاق ما نراه من واقع حياتنا.

إذن.. فقول الحق: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] من هذا القول نفهم أن أفعل التفضيل هنا لا تأتي للتمييز بين كلام صادق وكلام أصدق، ولكن لنعرف أن كلام اللّه لنا كثير. التكثير هنا إنما يجيء من ناحية كثرة الكلام لا من ناحية أن هناك كلاماً صادقاً وكلاماً أصدق. ويمكن لنا أن نقول: إن التفاوت يوجد في الصدق أيضاً كيف؟ لنفرض أن إنساناً رأى حادثةً يُقتل فيها إنسان آخر، فيشهد الشاهد بأنه رأى الدم، ولكن هناك شاهد آخر روى كل التفاصيل التي بدأت من قبل المشاجرة بين القاتل والقتيل إلى أن صار هناك قاتل وقتيل.

هنا نقول: إن الشاهد الثاني أشمل في الصدق من الشاهد الأول، إن الشاهد الأول قال شهادته في قضية صادقة، والشاهد الثاني قال شهادته بصورة أشمل في نفس القضية الصادقة. إذن فقول الحق: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ أي أن الحق سبحانه هو الأصدق بمعنى إخباره لنا بالشمول الكامل. إن الصدق لا تفاوت فيه لأن الصدق هو مطابقة النسبة الكلامية للواقع، وما دام هو كذلك فليس هناك صادق وأصدق ولكن أفعل التفضيل تأتي في «أصدق» باعتبار أن كمية الصدق الصادرة كبيرة، والصدق إن حدث من الخلق فالكذب يحدث منهم في أشياء أيضاً.

إن الحق سبحانه وتعالى يعلم الأشياء على وفق ما هي، ولكن الإنسان قد يقول قضية يعلم أنها صدق ولكنها في الواقع لا تكون صدقاً، فقد يقول قائل: زار فلان فلاناً بالأمس، قد اعتقد ذلك لأنه رأى حجرة الاستقبال في بيت فلان مضاءة فسأل عن الزائر فقيل له: «فلان» إن القائل روى خبر هذه الزيارة على وفق ما يعتقد ولا يقال: إن القائل قد كذب. ولذلك يجب أن نفرق بين «الخبر» وبين «المخبر»، كيف؟ نحن إذا قلنا: «زيد مجتهد» هل هناك واحد اسمه زيد ومجتهد بالفعل؟ هذا اسمه الواقع.

والسؤال الثاني هو: هل أنت تعتقد أن هناك واحداً اسمه زيد وهو مجتهد؟ أي أن الإنسان يحتاج إلى أمرين: معرفة وجود الشيء واعتقاد الشيء، وبذلك

يكون الخبر صادقاً ومخبر صادق أيضاً، ولكن قد يكون المخبر قد أخبر بأن زيداً مجتهد بناء على أن أحداً قد أخبره بذلك، ولكنه لم يكن كذلك، وقالها المخبر لاعتقاده أنها صدق. إن المخبر هنا صادق على وفق اعتقاده، لكن الخبر غير صادق في الواقع.

إذن.. فهناك فرق بين صدق الخبر وصدق المخبر، فإذا التقى الاعتقاد بالواقع صدق الخبر وصدق المخبر وإذا كان الخبر موافقاً للواقع ومخالفاً كموقف المنافقين الذين قال الحق فيهم: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] المنافقون علموا أن هذه القضية واقعة صادقة وأعلنوا هم ذلك ولكن الحق أضاف: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] إن القضية صادقة، ولكنهم كاذبون لأنهم قالوها بلا اقتناع فكانوا كاذبين. إن الدقة هنا توضح الفرق بين صدق الخبر وكذب الاعتقاد. إذن فصدق المخبر أن يقابل الكلام الاعتقاد.

وقد ترى رغبة في الدخول إلى المعاني إلى درجة أعمق، فتسأل: وهل التكذيب عند المنافقين على قولهم: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ لا... إن التكذيب واضح في قولهم: ﴿نَشْهَدُ﴾ وليس في مقول القول: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، لأن الشهادة تقتضي أن يواطئ اللسان القلب، ولكن المشهود به صدق وصحيح. ولذلك عندما يقرأ بعض الناس القرآن دون فهم للغة العربية فيفهم بالسطحية هذه الآية فهما خاطئاً: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ فكيف يشهد الله أنهم كاذبون رغم أنه سبحانه وتعالى يعلم مثلما شهد المنافقون؟! نقول لمثل هذا القائل: إن الخبر هنا لم يكن كاذباً، ولم يقل الحق بكذب الخبر ولكن الحق أوضح صدق الخبر وكذب المنافقين بشهادتهم إن التكذيب منصب على شهادتهم لا على خبر: إن محمداً رسول الله.

كيف نعرف الصدق من الكذب؟

الصدق يأتي حين توافق النسبة الكلامية التي يتكلم بها الإنسان النسبة الأخرى الخارجية الواقعة في الكون، فإن قلت: «حصل كذا وكذا» فتلك نسبة كلامية صدرت من متكلم هو أنت، فإن وافقها الواقع بأنه حصل كذا وكذا فعلا يكون المتكلم صادقاً، وإن لم يكن الواقع موافقاً لحدوث ما أخبر به يكون المتكلم كاذباً.. لماذا؟ لأن كلام المتكلم العاقل لا بدّ له من نسب ثلاث؛ **الأولى**: وهي النسبة الذهنية، فقبل أن أتكلم أعرض الأمر على ذهني وذهني هو الذي يعطي الإشارة للساني ليتكلم، هذه هي النسبة الأولى واسمها نسبة الذهن، وقد يعن لي أن تأتي النسبة الذهنية ثم أعدل عنها فلا أتكلم، وبذلك تكون النسبة الذهنية قد وجدت والنسبة الثانية وهي النسبة الكلامية لم توجد، وقد أصر على أن أبرز إشارة ذهني على لساني فأقول النسبة الكلامية، ونأتي بعد النسبة الكلامية لنرى هل الواقع إن ما حدث وتحدثت به وقع أم لم يقع؟ فإن كان قد وقع فيكون الكلام مني صدقاً، وإن لم يكن قد وقع وكانت النسبة الخارجية على عكس ما أخبرت به فنقول: «هذا كلام كذب».

إذن.. فالصدق هو أن تطابق النسبة الكلامية الواقع. والكذب هو ألا تطابق النسبة الكلامية الواقع، وكثيراً ما يخطئ الناس في فهم الواقع فيجدون تناقضاً في بعض الأساليب، مثال ذلك حينما تعرض بعض المستشرقين لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ تلك نسبة كلامية صدرت منهم، فهل هي مطابقة للواقع أم هي مخالفة له؟ إنها مطابقة للواقع ويؤكد الحق ذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾.

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] ففيم كذب المنافقون؟ هل كذبوا في قولهم: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ لا.. إن الحق لم يكذبهم في قولهم: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ لأن الله قد أيد هذه الحقيقة بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ ولكن كذبهم الله فيما سها عنه المستشرقون في فهم قوله: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ لقد كذبهم الله في شهادتهم، لا في المشهود

به وهو أن محمداً ﷺ رسول من الله. إن الله يعلم أن محمداً رسوله المبعوث منه رحمة للعالمين، لكن الكذب كان في شهادتهم هم لقد كذبهم الله في الشهادة نفسها لا في المشهود به وهو أن محمداً رسول من الله.. إن كلام المنافقين مردود عليه من الله، لماذا؟ لأن الشهادة تعني أن يواطئ اللسان القلب، وقولهم شهادة لا تواطئ قلوبهم، تعني كذبهم.

إذن.. فالتكذيب هو لشهادتهم، فلو قالوا: إنك لرسول الله دون «نشهد» لكان قولهم قضية سليمة، وذلك كان تكذيب الله لشهادتهم. ومن هنا ندرك السر في قول الله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ إن الحق يؤكد الأمر المشهود به وهو بعث محمد رسولاً من عند الحق، وبعد ذلك يأتي لنا الحق بشهادته: إن المنافقين كاذبون في قولهم: ﴿نَشْهَدُ﴾.

إذن.. فالصدق أن تطابق النسبة الكلامية الواقع. والصدق كما قلنا من قبل حق، والحق لا يتعدد، وضربت من قبل المثل: إن الإنسان الذي تطلب منه أن يرى واقعة شهدها بعينيه، وأن يحكيها بصدق فلن يتغير كلامه أبداً مهما تكرر القول أو عدد مرات الشهادة، لكن إن كانت الواقعة كذباً فالراوي تختلط عليه أكاذيبه، فيروي الواقعة بألوان متعددة لا اتساق فيها، وقد ينسى الراوي الكاذب ماذا قال في المرة الأولى، وهكذا ينكشف سر الكذب. لكن الراوي عن واقع مشهود ويصدق، فهو الذي حكم والذي لا تختلف رواياته في كل مرة عن سابقتها بل تتطابق، ولذا يقال: إذا أردت أن تكون كذوباً فكن ذكوراً.

هكذا نعرف أن الصدق هو أن تطابق النسبة الكلامية الواقع، لأنه عادة يأتي في الخبر، والخبر يأتي في النسبة الذهنية وتأتي بعدها النسبة الكلامية، فعندما نقول: «إن زيداً مجتهدٌ» فهذا يعني أن اجتهاد زيد قد حدث، فيأتي في ذهن من رأى اجتهاد زيد أن يخبر بأمر اجتهاده أولاً، ثم يخبر بالكلام عن اجتهاد زيد ثانياً.

إن الأمر الخارج وهو اجتهاد زيد قد حدث أولاً، وبعد ذلك تأتي النسبة الذهنية، وبعد ذلك تأتي النسبة الكلامية. لكن الإنشاء وهو ضد الخبر فهو أن تطلب من واحد أن ينشئ أمراً لا واقع له، كأن نقول لواحد: اجتهد. إننا قبل أن نقول لإنسان ما: اجتهد. فمعنى ذلك أن الاجتهاد كان أمراً في ذهن القائل، وعندما ينطقها تصبح نسبة كلامية، وبعد ذلك يحدث الواقع بعد النسبة الذهنية والنسبة الكلامية. وهذا هو الإنشاء. إن الإنشاء الطلبي يعني أن تحدث النسبة الخارجية بعد الكلامية.

والصادقون الذين أراد الله أن يمدحهم.. لماذا؟ وأين هو مجال صدقهم؟ إنهم الذين تطابق حركتهم منهج الله، لأنهم حين قالوا: «لا إله إلا الله». آمنوا به، ومعنى «لا إله إلا الله» أي: لا معبود إلا الله؛ ومعنى لا معبود إلا الله، أي أنه لا طاعة إلا لله، والطاعة كما نعرف هي امتثال أمر واجتناب نهي.

إذن.. فمجال «لا إله إلا الله» لا حدود له، لأنه لا معبود بحق إلا الله، ولا مطاع في تكليفه إلا الله، ولا امتثال لأمر أو لنهي إلا للأمر القادم من الله، والنهي القادم من الله؛ فإن امتثل إنسان لأمر بعد قوله: «لا إله الله» كان هذا الإنسان صادقاً في قوله: «لا إله إلا الله»، وهذا هو صدق القمة.

والمؤمن هو من يبني كل تصرفاته موافقة لمنهج الله. هذا هو الإنسان الصادق أما الذي يقول بلسانه: لا إله إلا الله، أي: لا مبعود بحق إلا الله، ثم يطيع خلق الله في معصية الله، لنا أن نقول له: أنت كاذب في قولك: «لا إله إلا الله»، لماذا؟ لأنه لم يطابق النسبة التي قالها. إن هذا الإنسان إذا آمن بأي تكليف ثم فعل ما يناقضه فلنا أن نقول له: أنت منافق. لماذا؟ لأننا عندما تكلمنا في خواطرنا الإيمانية في أول سورة البقرة عن المنافقين قلنا: إن المؤمن حين يؤمن بالله يكون صادقاً مع نفسه، والكافر حين ينكر الألوهية يكون صادقاً مع نفسه أيضاً؛ أما المنافق فهو لا يصدق مع نفسه ولا يصدق مع الناس، إنه مذبذب بين هؤلاء وهؤلاء. إن المنافق بلا صدق مع النفس. إن الكافر له صدق مع النفس لأنه لا يقول: «لا إله إلا الله» وبالتالي لا ينفذها، أما المنافق فقد قال: لا إله إلا الله بلسانه، وهي غير مطابقة لسلوكه وفعله، لذلك يكون غير صادق مع نفسه وغير صادق مع ربه.

إذن فقول الحق: ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ مقصود به هؤلاء الناس الذين يأتون في كل حركاتهم صادرين عن منهج الله؛ فلا يؤمنون بقضية ويفعلون أخرى. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣] أي أن يكون القول شيئاً مختلفاً عن الفعل فلا تتطابق النسبة.

إذن.. فالصادقون هم الذين يصدقون في سلوكهم مع كلمة التوحيد في كل ما تتطلبه هذه الكلمة، التي سبق وقلنا إن معناها: لا إله إلا الله، أي: لا معبود بحق إلا الله، أي: لا مطاع في أمر أو نهي إلا الله. فإن جئت وأطعت أحداً في غير ما شرع الله فيحق للمؤمن أن يقول لك: أنت كاذب في قولك: «لا إله إلا الله».

إذن.. فقوله سبحانه: ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٩] إنما هي وصف لقوم يتبعون منهج الله، لتطابق القول مع الفعل.

ولذلك سئل رسول الله ﷺ: أيزني المؤمن؟ أجاب بما معناه أنه يزني، وسئل رسول الله ﷺ: أيغتاب المؤمن؟ أجاب بما معناه أنه يغتاب، وسئل رسول الله ﷺ: أيسرق أيضاً؟ أجاب بما معناه: قد يفعل. وسئل رسول الله ﷺ: أيكذب المؤمن؟ أجاب رسول الله ﷺ بما معناه: لا إن المؤمن لا يمكن أن يكذب[1]، لأن المؤمن في كل تصرفاته خاضع لإيمانه بأنه لا إله إلا الله. ولذا أعرض الكثير ممن هم حول الرسول ﷺ في بدء الدعوة عن قول لا إله إلا الله لأنهم يعلمون أن لها مطلوباً سيكلفهم الكثير، وهؤلاء كانوا أيضاً صادقين مع أنفسهم.

❁ ❁ ❁

(١) سبق تخريجه.

قدم صدق.. وقدم كذب!

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] المقصود بالناس هنا هم كل الناس لأن رسول الله ﷺ مرسل للناس كافة، وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ القدم هي آلة السعي والحركة، بينما اليد هي آلة العطاء. تقول: فلان له يد عندي، أي عطاءات عليّ. وقدم صدق معناها فضل، لأنهم استمعوا إلى منهج الله وسعوا في تنفيذه فيبشرهم بالجنة لأن لهم سابق قدم سعي إلى الخير، ولذلك فهي ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾، ولكن هل يوجد قدم كذب؟ نقول: نعم. ما يسعى فيه الناس بالباطل والافتراء على خلق الله. وقدم الصدق هي التي أهلتهم للبشارة لأنها هي الخصلة التي لا يمكن لمؤمن أن يتنحى عنها، إلا تنحى عن إيمانه، ولذلك حين سألوا رسول الله ﷺ: أيسرق المؤمن؟ قال: يجوز. قالوا أيزني المؤمن؟ قال: يجوز. قالوا: أيكذب المؤمن؟ قال: لا يكون المؤمن كذاباً[1].

فالصدق هو أساس الحركة النافعة في الكون، فإن صدق التاجر في الثمن وصدق العامل في العمل، وصدق الناس في نقل الخبر تصلح حركة الحياة، ولكن الفساد يأتي من الكذب، ولذلك تكررت كلمة الصدق في القرآن الكريم عدة مرات في قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ [الأحقاف: ١٦]. وقوله سبحانه: ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ [مريم: ٥٠] ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٩٣].

وطلب منا الله تعالى ألا نعد بما لا نقدر عليه إلا أن نقول: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١] لأنك حين تعد لا تملك تنفيذ ما وعدت به، فأنت لا تملك حياتك إلى الغد؛ وإذا ضمنت حياتك لا تضمن حياة من وعدته ولا تضمن السبب الذي من أجله تم الوعد، ولا تضمن أن صحتك وعافيتك ستعينك على الوفاء بوعدك، ولذلك فإنه ليس عندك عنصر من عناصر الوفاء فأسندها إلى من يملك كل العناصر، ولذلك قل: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فوعد الصدق لا يملكه إلا الله سبحانه وتعالى. إذن فكل أمور الخير في الحياة قائمة على الصدق.

---

(١) سبق تخريجه.

الصديق

الصدِّيق هو الذي بلغ النهاية في تصديق الحق، فيورثه اللَّه شفافية وإشراقاً، فإذا سمع الشيء عرف الحق من الباطل بمجرد أول نظرة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩] أي يعطيك موازين تفرق بها بين الحق والباطل دون أن تبحث المسألة وتتعب فيها، ومن هنا سمي أبو بكر رضي اللَّه تعالى عنه الصديق، فالصديق ليس صادقاً فقط، ولكنه يصدق كل ما يقال له موافقاً للحق، ولذلك لما أخبروه أن صاحبه محمداً ﷺ يقول إنه أُسرى به إلى بيت المقدس وعرج به من بيت المقدس إلى السماء قال: «إن قال ذلك فقد صدق»[1] فهو لا يناقش ما قاله الرسول ﷺ، وإنما الفيصل عنده أن يكون الرسول قال هذا الكلام. وفي القرآن الكريم عن السيدة مريم عليها السلام: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞ﴾ [المائدة: ٧٥].

إذن.. مريم صديقة، بعض الناس يقول: صديق يعني يصدق في كل أقواله وأفعاله، نقول له: هذا هو الصادق، لكن الصِدِّيق هو الذي يصدق كل ما يقال موافقاً للحق، وسيدنا إبراهيم عليه السلام كان صِدِّيقاً ونبياً. وهناك فرق بين الصدِّيق والنبي، فالصِدِّيقية هذه ذاتية عنده إشراقية من اللَّه فيه، أما النبي فجاءه تشريع من عند اللَّه، فقد يكون الإنسان صديقاً ولكن ليس عنده تشريع يقوله لنفسه، ولكن النبي يأتيه تشريع وهدى من السماء.

(١) جزء من حديث رواه الحاكم [٣/ ٦٦] عن عائشة رضي اللَّه تعالى عنها.

تلقيب النبي ﷺ بالصادق الأمين

كان من الصدق المعروف عنه ﷺ أنه لقب بالصادق الأمين، وكانوا في الجاهلية يأتمنوه على ودائعهم وأماناتهم لما اشتهر عنه ﷺ بالصدق والأمانة؛ ولذلك فعندما علم أبو بكر رضي الله تعالى عنه بنبوة رسول الله ﷺ آمن من فوره. على أي شيء آمن؟ أسمع من رسول الله ﷺ كلاماً معجزاً أو قرآناً أُنزل من السماء؟ بالطبع لا. ولكنه كان يعرف يقيناً أن رسول الله ﷺ صادق في كل ما يقوله، فما كان ليصدق بين البشر ويكذب على الله.

ولذلك يروى في الأثر أن سيدنا رسول الله ﷺ قال: كنت أنا وأبو بكر في الجاهلية كفرسي رهان نتسابق إلى معرفة الحق نستبقه، فجاءتني البعثة فكان أول من آمن بي من الرجال دون تردد، والله لو سبقني لكنت أول من آمن به دون تردد (١).

---

(١) كان من أخلاق الصديق في الجاهلية أنه رضي الله تعالى عنه: يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق، وذلك فيما رواه البخاري [٣٩٠٥] عن عائشة رضي الله تعالى عنها، زوج النبي ﷺ قالت: لم أعقل أبواي قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار، بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة، حتى إذا برك الغماد لقيه ابن الدغنة، وهو سيد القارة، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي. قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يُخرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك ببلدك فرجع وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق. فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا لابن الدغنة: مرّ أبا بكر فليعبد ربه في داره فليصل فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا. فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث بذلك يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر، فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، =

ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً. ولكن أخي وصاحبي؛ وقد اتخذ اللَّه عزَّ وجلَّ صاحبكم خليلاً[١].

وخديجة رضي اللَّه تعالى عنها حينما عاد الرسول يوماً إلى البيت وأخبرها بما رآه وكان يظن أن شيطاناً قد أصابه بمس، فقالت خديجة رضي اللَّه تعالى عنها لرسول اللَّه ﷺ: إن المقدمات في حياتك لا توحي بأن اللَّه يخذلك، أو سيفضحك، أو يسلط عليك شيطاناً. هذا غير معقول، فواللَّه إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق فواللَّه لا يخزيك اللَّه أبداً[٢].

ولذلك كانت السيدة خديجة أول فقيهٍ مستنبط قبل أن يأتي الفقهاء بالاستنباط.

= فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكاء، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم، فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك، على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك، فابتنى مسجداً بفناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فانهه فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل وإن أبى إلا أن يعلن بذلك، فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان. قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي عاقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إلي ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له. فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك، وأرض بجوار اللَّه عزّ وجلّ.

(١) رواه البخاري [٣٦٥٤]، ومسلم [٣/٢٣٨٣] واللفظ له عن عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه تعالى عنه.

(٢) رواه البخاري [٤]، ومسلم [١٦٠/٢٥٢] عن عائشة رضي اللَّه تعالى عنها.